

# قضايا الأدب والأدباء

فرنسوا باسيللي

نحو تخليد الظاهرة الحزيرية :

دعوة لتقييم ادب ما بين الحربين

## تعريف :

ادب ما بين الحربين المقصود به هنا هو ذلك النتاج الادبي - الفكري الذي ظهر في فترة السنوات الستة ما بين هزيمة يونيو ٦٧ وصحوة أكتوبر ٧٣ ، والذي تفرّد وتميز بسمات شديدة الحسنة والخصوصية وبالغلة الأهمية ساهمت معاً في تشكيل ما يمكن تسميته « بالظاهرة الحزيرية » . . انه باختصار « رد الفعل الادبي » لهزيمة ٦٧ الهائلة وللواقع الذي أنتجها . فاذا ما نظرنا الى حزيران باعتباره « فعلاً » فادحا عصفاً بالواقع العربي وبالإنسان العربي ، فان « رد الفعل » الذي استغرق السنوات الست التالية للفعل ، والذي وقع على عدة مستويات ادبية وفكرية وفنية ، والذي تكونت حركته العامة من ايقاعين أساسيين ، هما ايقاع الحزن وايقاع الغضب - النقد ، متكررة في الاشكال الفنية الاساسية من مسرح وشعر وقصة ومقال ، رد الفعل الادبي هذا بمختلف ابعاده هو ما نسميه بالظاهرة الحزيرية .

تبرير استخدامنا للكلمة « ظاهرة » في هذا المجال هو نفس تبرير استخدامها في المجال الفيزيائي العلمي ، حيث يستخدم المصطلح « ظاهرة طبيعية » لتمييز مجموعة من العناصر التي نجتمع تحت ظروف خاصة منتجة حدثاً منفرداً ومميزاً وخارجاً عن المألوف والمعروف من القوانين الطبيعية السابقة ، مما يستدعي رصد الظاهرة ودراستها لاكتشاف اسرارها وقوانينها الخاصة ، وبذلك يمكن نقلها من منطقة العجب والدهشة الى منطقة المألوف والمفهوم جنباً الى جنب بقياس المعارف الانسانية . والنتاج الحزيري ، بهذا المفهوم ، « ظاهرة » منفردة ومتميزة وخارجة عما سبقهما من النتاج الادبي وستختلف بالضرورة أيضاً عما سيعقبها من النتاج الادبي .

## لماذا تخليد الظاهرة الحزيرية ؟

التخليد هنا ليس بمعنى ضمان استمرار وجود الظاهرة ، لكنه بمعنى ادخالها في التراث لضمان استمرار الاستفادة فيها . انه محاولة - ولنعند للفيزياء - نقل الظاهرة الادبية من منطقة الدهشة والسر الى الفة وطمانينة التراث . وهذا يتطلب رصد الظاهرة ودراستها وتحليلها وتقييمها توطئة لضم الجوهري منها الى مكتوز التراث ، والهدف من ذلك ليس مجرد اثناء التراث الادبي - الفكري بصفحة خاصة جديدة ولكن فوق ذلك واهم : ضمان الاستفادة المباشرة - فنياً وتاريخياً - من

الظاهرة الحزيرية واستخلاص ما بها من اتجاهات وابعاء جوهريّة يمكن ان تسهم في تشكيل المستقبل الادبي - الفكري في العالم العربي .

ان الهدف من اية دراسة - بصفة عامة - هو عدم السماح للتجربة او للظاهرة تحت الدراسة بالافلات دون تحويلها الى خبرة انسانية عامة . وفي مجال الدراسات العلمية الطبيعية لا يختلف احد على ان البحث العلمي هو اساس التقدم العلمي . أما في المجال الادبي فسان دور الدراسة لا يزال متنازعا عليه حيث يبدو ان الوهبة المتألقة هي اساس التطور الادبي وانه يمكنها الاكتفاء بنفسها دون حاجة الى الدراسة الادبية . فد يرجع هذا الفارق الى حضور المستوى الموضوعي الذي تقع عليه الدراسة العلمية وغيابه في حالة الدراسة الادبية ، حيث تصبح الموضوعية استحالّة بديهية في الاخيرة ما دام الادب في الاساس نفاعلاً شخصياً وتعبيراً شخصياً عن ذلك التفاعل . تظل الدراسة الادبية في وضع مخرج تجاه شبهة « الشخصية » المعلقة فوقها .

وبسبب غياب المقياس الموضوعي المتعايد الذي يمكن اخضاع العمل الادبي تقع خارج هدفه من هذا المعال (١) . رغم هذا القصور في الادبي تقع خارج هدفه من هذا المعال (١) . رغم هذا القصور في طبيعة الدراسة الادبية فلا شك انّها قد حفقت تقدماً كبيراً شخصياً نحو محاولة الالتزام بالموضوعية والمنهجية والتطهر من « الشخصية » والعمل على استخدام اساليب نقدية متقدمة ومرهفة ، واستعارة اساليب مستخدمة في دراسة علوم اخرى لتطبيقها ببراعة في المجال الادبي (٢) الرغبة في تحويل « الظاهرة الحزيرية » اذن الى خبرة ادبية نصيف اضافة هامة الى التراث والى المستقبل - الادبي في وقت واحد هي اساس الدعوة الى تقييم ادب ما بين الحربين . ونسوفسر الاساليب

(١) لمست هذه المشكلة لسنا سربعا في مقال سابق بعنوان «دراسة علمية لمؤثر ادبي» - الاداب - العددان الخامس والسادس ( مايو ويونيو ) ١٩٧٣

(٢) انظر استعارة خالدة سعيد للاسلوب الهندسي وتطبيقه في دراستها البارعة لقصيدة ادونيس « هذا هو اسمي » (مواقف) العدد السابع - وكذلك استخدام منير العكني للاسلوب الاحصائي في دراسته عن اللغة الشعرية بنفس العدد من «مواقف» . وايضا استخدامي للاساليب العلمية والاحصائية في تقييم مؤثر الادباء العرب التاسع بتونس في المقال المشار له في هذا الهامش .

## ٢ - افتراض :

هناك دائما الفكرة المنطقية والتاريخية التي تقول بان اي ادب لا يمكن ان ينشأ فجأة من العدم . وان اي ادب ، مهما اختلف وتميز ، فهو امتداد طبيعي وشرعي للادب السابق له ، ونسل للتراث الادبي الذي ولد فيه . وعلى هذا فان الادب الجزائري ليس الا امتدادا لادب ما قبل حزيران وتصبح محاولة فصل ذلك الاب المحدد بفترة زمنية ، هي السنوات الست ، محاولة تعسفية ، وربما سطحية لا تنظر الى الاعماق . فكيف لنا ان نواجه هذه الفكرة المعقولة ؟

اولا علينا ان نعترف ان بعض النتاج الجزائري كان فعلا امتدادا طبيعيا لادب ما قبل حزيران . ربما كان اهم نموذج لهذا هو شعر المقاومة الفلسطينية . وبالتحديد انتاج محمود درويش وسميح القاسم الذي اراه تطورا شعريا طبيعيا كان سيحدث بحزيران او بغيره . وربما كان تفسير ذلك انهما كانا ملتصقين بالقضية التصاقا مصيريا منذ فتحةما الشعري وقبل حزيران بزمن ولذلك لم تتغير طبيعة موقفهما الشعري بعد وقوع حزيران . ولمحمود درويش مقطوعة شعرية تحمل هذه الفكرة . شعر المقاومة الفلسطينية اذن لا يدخل ضمن اطار الظاهرة الجزائرية بينما تدخل (( هوامش على دفتر النكسة )) مثلا اطار الظاهرة لانها قصيدة لم تكن لتكتب لولا حزيران . ولانها نابعة منه مباشرة .

بعد هذا الاعتراف الاولي بانطاق فكرة الاستمرارية والتواصل في الادب على بعض الانجازات الادبية التي وجدت في فترة ما بين الحربين ، فان هذا يعنينا من التأكيد على ان الجزء الاغلب من الانتاج الادبي في تلك الفترة كان انتاجا جزائريا . وبذلك المعنى فقد كان انعراجا خاصا في خط التطور الطبيعي للادب العربي الحديث . ظهر - الى حد بعيد - فجأة ، ربما بنفس الدرجة التي وقع بها حزيران فجأة . وتميز بخصائص وقسمات ناتجة عن حزيران وحائمة حوله في دوران خاضع لقوة جاذبيته الباهرة . وعلى هذا فانه يمكن ان نقول - في افتراض ٢ - ان الظاهرة الجزائرية بدأت فعلا بحزيران .

## ٣ - افتراض :

بعد الانتهاء في الافتراضين ١ و ٢ من رسم حدود الظاهرة الجزائرية وتبرير تلك الحدود والدفاع عنها ، نتجه في الافتراض الثالث الى طبيعة الظاهرة نفسها . وهنا نستطيع ان نزمع ان الظاهرة الجزائرية لم تكن ذات طبيعة واحدة وانما كانت لها طبيعتان متلازمتان ، الاولى هي الحزن والثانية هي الفضب . - ويكاد ان ينقسم النتاج الادبي في تلك الفترة الى هذين القسمين دون ان يتبقى بعد ذلك اي فائض من القسمة . اي ان الحزن - ( وادخل تحته اليأس والاحباط والفكاهة السوداء والعبث الوجودي ) - والفضب - ( وادخل تحته ايضا ، وربما اساسا ، النقد ) ، كانا هما العطاء الاساسي للظاهرة الجزائرية .

## ٤ - افتراض :

اننا في فحصنا للنتاج الجزائري باشكاله الفنية المختلفة ، قد نستطيع التطرق الى تساؤل فني هام يقع في قلب قضية العلاقة بين الشكل والمضمون في العمل الادبي . وذلك السؤال هو : هل هناك اشكال فنية معينة اكثر استعدادا من غيرها لمضامين معينة ؟ وبصورة اخرى .. هل اختلف الشعر عن القصة القصيرة مثلا في تمييز كل منهما من الحزن ومن الفضب ؟ هل مال النتاج الشعري ، مثلا ، اكثر نحو الحزن ، بينما مال النتاج المسرحي اكثر نحو الفضب ؟ واذا كان هذا قد حدث - وهذا يمكن تحقيقه باجراء عمليات احصائية بسيطة - فلماذا حدث ؟ هل الشكل الشعري وطبيعته الفنائية تجعله مناسباً لطبيعة الحزن والشجن ؟ وهل الشكل

النقدية المتقدمة لدى نقادنا الحداثيين كإضافة هامة ومثيرة لما يعطى به نقادنا الكبار من موهبة وخبرة وبصيرة نقدية هائلة ، تشجع بالتاكيد على المناداة بهذه الدعوة والنظرة الى امكانية تحقيقها . اننا لا نتحدث هنا عن رواية واحدة او ديوان شعر او مجموعة قصصية ، ولا عن شاعر او كاتب كبير او شاب ، ولا عن ادب فلسطيني او مصري او سوري .. اننا نتحدث عن جميع هؤلاء ، عن النتاج الادبي والفكري الذي ظهر بالعربية في السنوات الجزائرية الست وهو نتاج يسلب عدة اشكال فنية ، ينطلق من عدة بوتقات اقليمية مختلفة ، ويصدر عن شرائح وقطاعات متنوعة من منتجي الادب والفكر .. الحصاد هائل اذن والفلة ، نسبيًا ، قليلون . لكن ضخامة العمل لا يجب ان تفقدنا عن القيام به . ان العالم العربي مقبل ، او يجب ان يكون مقبلا ، على « عصر نهضة » يشارك فيه الانسان العربي - بعد غيبة طويلة - في بناء عالم افضل ( ليس فقط على الارض ولكن ايضا على القمر وجوبيتر وعطارد ... الخ ) ، وامام مسؤولية صنع هذه النهضة المقبلة ، لا يمكننا ان نملك رفاهة الاستغناء عن الدراسات والابحاث - الادبية والعلمية - في كافة مجالات النشاط الانساني . تصور انه يمكننا الاكتفاء بما صدر من شعر وقصص ومسرح ورواية ، وما صاحب ذلك من الاعمال النقدية المنفرقة التي تركز على ذلك الديوان او تلك القصة ، هو تصور خطر ان يحمل طبيعة الاستسهال ويشي بعدم الجدية التي تتنافس مع مسؤولية اشغال نهضة فكرية توابك النهضة المادية التي يقبل ، او يجب ان يقبل ، عليها العالم العربي الان . ذلك لان وراء تلك الاعمال الادبية المنفرقة مناخا واحدا هو مناخ حزيران ، يبقى علينا ان نكتشفه تماما ونعين دوره واثره ، وهناك أسئلة فكرية وانسانية هامة تتعلق بالظاهرة الجزائرية يبقى علينا محاولة الاجابة عليها .

وبعد ذلك التقديم والتبرير للفكرة التي يحملها هذا المقال ، فانني اشعر اني يمكنني المقامرة بعرض بعض النقط والافتراضات ، واذا سمح لي بان استشير من عدلي اليوم بعض التصورات الهندسية فانه يمكنني ان اقول ان هذه الافتراضات تمثل نقطا في الفراغ يمكن لو ربطنا بينها بخيوط ، ان تكون هيكلًا بناييا يصلح اساسا ، نظريا ، تقوم عليه عمالية التقييم المقترحة . وتمنح هذه النقط الحرية لفيري بان يصل بينها بخيوط مختلفة او بان يتجاهل بعضها باعتبارها غير هامة او يضيف نقطا جديدة لتكوين قاعدة مختلفة كاساس نظري لعملية التقييم . وهذا ما اقصد بالضببط اذ انني لست متعصبا لافتراضاتي هذه ولست مرتبطا عاطفيا وارحبا بكل رغبة في تصحيحها او تغييرها او الاضافة اليها .

## ١ - افتراض :

تحتوي الدعوة الى تقييم الظاهرة الجزائرية على افتراض ضمني بان تلك الظاهرة قد اكتملت وتمت . اذ اننا لن نقدم على دراسة ظاهرة ما بكافة ابعادها لو كانت ما تزال في طور النمو والتغير لان هذا سيمنعنا من التوصل الى اية استنتاجات نهائية يمكن الوثوق بها . وتبرير افتراضي هذا هو انني اعتقد ان « الفعل » الواقعي قد اثبت قدرته الفائقة وسلطته الضخمة في التأثير على المناخ الادبي والفكري . وهذا بالضبط هو اساس ظهور الادب الجزائري . وكما ابتداء ذلك الادب كرد فعل لحزيران ، فانه لا بد سينتهي كرد فعل لاكتوبر . ذلك لان اكتوبر كان نهاية حادة للفصل الجزائري في التاريخ العربي . حيث تصبح وسمات ذلك الفصل لا محل لها بعد انتهائه . سمات اساسية كانت واضحة في الفصل الجزائري ، مثل الحزن العميق واليأس والسخط والاحباط والفضب ، ستتبدد بلا شك بعد اكتوبر الذي منح املا وفتح افقا وامكانيات جديدة . بالطبع لن ينتهي الحزن والفضب من الادب العربي - ولا من اي ادب آخر - ولكنه عندئذ سيكون نابعا من نوع اخر غير حزيران وبالتالي لا يدخل في الظاهرة الجزائرية . انتهاء واكتمال الفصل الجزائري في الادب هو اذن افتراض اعتقد انه يمكننا الاتفاق عليه .

المسرحي ، بإمكانياته الواقعية المتحركة الصاخبة ، أكثر تقبلا واستعدادا هيكليا وغريزيا للمضمون الغضب والنقد ؟

محاولة اجابة هذه التساؤلات التكنيكية، من خلال الحصاد الجزيري الوفير باشكاله الفنية ومضامينه المختلفة ، لا شك سيساهم في تعميق فهمنا للعلاقات الداخلية وللقوانين البنائية في العمل الادبي .  
- افتراض ه :

محتما في حقيقة ان ملاحظاتي هذه هي « افتراضات » اقدمها للبحث والدراسة ، وفي تقريرتي بانه لا تربطني بافتراضاتي هذه اية علاقة عاطفية خاصة ، انطلق من ذلك مطمئنا نحو التوفل اكثر في ميدان المجازفة ، فإغامر بتقديم الافتراض التالي :

ان توزيع طبيعتي الحزن والغضب في النتاج الجزيري لم يكن فقط توزيعا فنيا ، على اشكال فنية مختلفة تفاوتت في امتصاصها لكل من المضمونين الجزيرانيين ( افتراض ه ) ، ولكنه كان ايضا توزيعا جغرافيا ، تفاوتت فيه العواصم العربية المنتجة للادب ( القاهرة وبيروت وبغداد اساسا ) في ميلها الى كل من الحزن او الغضب . فاذا اخذنا الشعر الجزيري في مصر ، نجد شعرا مغمما بالحزن بالدرجة الاولى . بينما يمكن ان نقول ان الشعر الذي ظهر في لبنان والعراق ، كان بالدرجة الاولى شعرا غاضبا . هذا ليس معناه انه لم يكن شعرا حزينا ايضا ، ذلك لان الحزن هو الدرجة الاولى من الانفعال والتي تؤدي الى الدرجة التالية لها وهي الغضب . ما ازعجه هو ان الشعر في مصر وقف ، في معظمه ، - ويجب ان تذكر اني اتحدث عن « القاعدة » واعيا ان لها دائما « شواذ » - عند الدرجة الاولى من الانفعال وهي الحزن . لا نجد لدى الشعراء المصريين ذلك الغضب المتألق ولا القسوة على النفس ولا الرفض الفلسفي الشامل الذي نجده مثلا في القصيدة الرهيبة « هذا هو اسمي » لادونيس .

هذه الظاهرة في الحقيقة ربما تكون ابعث من حزيان واشمل من الشعر في مصر . ذلك لان الادب المصري عامة ادب يعرف الحزن لكنه يجهل الغضب . وبالتالي كان رد الفعل لحزيان شحنة جديدة من الحزن ولا غضب . وفي نفس الوقت فان الرومانسية المصرية التي تسود الشعر والقصص القصيرة - عدا بعض الاستثناءات - كانت وما تزال عاجزة عن الشعور بالغضب وبالتالي عاجزة عن افراده فنيا .

يمكن اذن ان تتجه بعض الدراسات المهمة بالظاهرة الجزيرية الى هذا الاتجاه الذي يقترحه الافتراض الخامس . محاولة اثبات ، او دحض ، الادعاء بان الاختلاف الجغرافي - الاجتماعي - السياسي - بين العواصم العربية وادبائها ، ادى الى اختلاف في مضمون الاعمال الادبية الطروحة ، وفي موقف كل منها من الطبيعتين الاساسيتين للظاهرة الجزيرية ، الحزن والغضب .

- افتراض ٦ :

ان الظاهرة الجزيرية حققت عدة آثار هامة وكانت لها نتائج فعالة ساهمت ، بجانب العوامل الاخرى السياسية والاجتماعية - في التغلب على حزيان وتخطيه وتجاوزه . وهذا ، في رأيي ، هو اخطر الافتراضات ، فلنضمه الان في صورة تساؤل :

● هل كان للنتاج الادبي والفكري الجزيري اثر ايجابي ساعد على تجاوز حزيان والوصول الى اكتوبر ؟ ربما يحسن بنا الاعتراف

باتتماء هذا التساؤل الى القضية الاشمل التي تتعلق بدور الادب في المجتمع وبقدرة الادب على التأثير في الواقع .

الاجابة على هذا التساؤل ، فيما يتعلق بالنتاج الادبي - من شعر وقصة ومسرح ، اصعب من ان نحصل عليها بدون دراسة متميقة لذلك النتاج الادبي يمكننا بعدها معرفة مدى مساهمة الادب الجزيري في تجاوز حزيان . وهذه مهمة نقادنا الابطال وهي ليست بالمهمة السهلة .

اما بالنسبة للنتاج الفكري الجزيري واثره في تجاوز حزيان والوصول الى اكتوبر فان الاجابة تبدو اسهل منها فيما يتعلق بدور الادب . ذلك لان الفكر العربي قام في خلال السنوات الجزيرية الست بحركة نقد للذات وتحديق في عيوب النفس وفي التشوهات العربية لا يكاد ان يكون لها مثيل في تاريخ الفكر العربي . لم يحدث قبل حزيان ان وقف العقل العربي محققا في نفسه بمثل هذه القسوة والحدة رافضا عاهاته الخاصة متساخلا عن الخلاص في حرارة والم وغضب (٣) . انني هنا افترض ان حركة نقد الذات هذه اثرت تأثيرا ايجابيا ، سواء مباشرة او غير مباشرة ، في تغيير كثير من الاساليب الفكرية التي كانت سائدة قبل حزيان . انني لا اقصد هذه الحركة على النتاج النقدي والفكري فقط وانما اضم لها عدة ظواهر اخرى مصاحبة مثل ظهور مجالات فكرية جديدة جادة في العالم العربي ، واهمها مجلة « مواقف » ، ومثل التطور الهام في موقف مجلة « الادب » وتحركها نحو موقع متقدم وقيادي في معركة حرية الفكر العربي . ومثل « بيان الادياب » الذي وقع عليه عدد من ادياب مصر وعلى رأسهم توفيق الحكيم مطالبين اساسا بحرية الكاتب . ثم ظهور مجلات وجرائد عربية خارج الوطن العربي ، واهمها جريدة « مصر » التي تصدر في نيويورك ونشرة « الوطن » التي تصدر في بنسلفانيا ، واهتمامهما المشترك بقضية الحرية العربية - فكريا وسياسيا - كل هذه تشكلت معا تلك الحركة الفكرية الناقدة التي ازعمت انها ساعدت على تجاوز حزيان فكريا وحضاريا . ويبقى على الابحاث المتعمقة اثبات ، او دحض ، افتراضي هذا .

\*\*\*

هذه الافتراضات الستة تشكل معا اساسا يمكن ان تقوم عليه عملية تقييم الظاهرة الجزيرية بكافة ابعادها . يبقى الباب مفتوحا لمزيد من الاجتهادات في هذه المرحلة الاولى ويمكن ان هم اكثر مني معرفة بالنتاج الجزيري اضافة عدة افتراضات اخرى او تصحيح افتراضاتي الستة هذه . ان همة الاول ليس هو ان اكون مصيبا في افتراضاتي هذه وانما ان تساهم هذه الافتراضات في اشغال الاهتمام بعملية التقييم والدراسة الجادة الشاملة للنتاج الادبي والفكري فيما بين الحريين وفي الدور الذي لعبه ذلك النتاج . انني اعرف ان دعوتي هذه طموحة لكنني اشعر انها واجبة وانها ، رغم صعوبتها ، ممكنة ومفعمة بالثمار .

نيويورك

(٢) اعرض نموذجا واحدا يشد شذوذا فذا عن هذا التصريح وذلك هو نتاج الكاتب المصدر والمحاصر عبدالله القصيمي . ذلك لان القصيمي وقف محققا في الانسان العربي والعقل العربي طويلا قبل حزيان . اعماله الصادرة قبل حزيان ، مثلها مثل تلك الصادرة بعده ، تحمل عنفا نقديا لا مثيل له في العربية ضد المستويات العقلية ، والانسانية عموما ، التي يتحرك عليها الانسان العربي .